إيفان بونين فى ذكرياته وصوره

إيفان بونين أحد الكتاب الروائيين الروسيين البارزين فى الأدب العالمى الحديث ، وهو إن لم تبلغ مكانته فى الأدب الروسى مرتبة الأعلام الأفذاذ أمثال تولستوى ودوستوفسكى وترجنيف فإنه يعد من أضراب ليون أندريف وكوبرن وسولوجب وجوركى وغيرهم من الكتاب الروسيين الذين لمعت أسماؤهم وذاعت آثارهم الادبية قبل وقوع الثورة الروسية الاخيرة .

وبونين قصصى واقعى تمتاز قصصه بخير الصفات المعهودة فى الأدب الروسى ، وهى صدق الوصف والإخلاص للحياة والنزعة الإنسانية الغالبة ، وهو أقرب إلى ترجنيف وأشبه به فى شاعرية أسلوبه واعتماده على الوصف والاستغراق فى التأمل أكثر من الاعتماد على تشريح العواطف وتحليل الأهواء والميول .

وقد بدأ حياته الأدبية شاعراً ، ولما اتجه إلى التأليف الروائى ظل الشاعر يبدو فى كتاباته خلال الروائى ، ويتجلى ذلك بوجه خاص فى نثره حينما يتحدث عن أسفاره ورحلاته وسوالف ذكرياته ووصفه لأصدقائه أو من لقيهم من الناس فى أثناء تنقلاته فى مختلف الأقطار .

وقد لحظ بعض النقاد الروسيين فى أسلوبه نوعاً من تحرى الاحتياط والدقة يصل أحياناً إلى حد الجفاء والجمود ، وقد علّلوا ذلك بأنه كان حريصاً على أن يكبح جماح الشاعر الكامن فى نفسه ، وقد ظهر ذلك بوجه خاص فى قصة له ذائعة الشهرة وهى قصة «الجنتلمان من سان فرنشيسكو» وهى من طرائف

القصص القصيرة فى الأدب العالمى ، وقد وصف فيها حياة رجل من رجال الأعمال الأمريكيين قضى حياته فى كد وتعب ، ولما بلغ الثامنة بعد الخمسين من عمره وأصبح ثريًا ووصل إلى مستوى هؤلاء الذين اتخذهم له مثالا عقد العزم على أن يمنح نفسه هدنة ويهيئ لها بعض أسباب الراحة ودواعى المتعة ، وقد جرت عادة أمثاله من رجال الأعمال أن يبدأوا هذا اللون من ألوان الاستمتاع برحلة إلى أوربا والهند ومصر ، ولذلك انتوى أن يسير سيرتهم ويصنع صنيعهم ، وكان يريد قبل كل شىء أن يكافئ نفسه لقاء ما تجشم من عناء طوال السنوات الخالية من حياته ، ولكنه رأى أن يصحب معه زوجته وابنته ليشاركاه متعة السفر ، وبدأت الرحلة جميلة شائقة ، وكان هذا الجنتلمان من سان فرانشيسكو ينفق عن سعة مثل أكثر السائحين الأمريكيين ، ولذلك كان خدم السفينة يتبارون فى الاستجابة لطلباته . والنزول على أوامره ، وكان أينما حل يتسخى ويغدق فيلقى الرعاية والإكرام والتبجيل والاحترام حتى اطمأن به المقام فى جزيرة كابرى الجميلة ، وقد بالغ صاحب الفندق الذى نزل به هذا الجنتلمان فى الحفاوة به وبأسرته وتوفير سبل الراحة والترفيه لأفراد الأسرة جميعاً ، وشاءت الأقدار أن يصاب الرجل بمرض مفاجئ لا تحتمله بنيته التى أضناها الإجهاد فقضى نحبه . ويضيق صاحب الفندق بالأسرة بعد هذا الحادث ويتنكر لها ، وتتعرض الزوجة والإبنة لضروب شتى من الإذلال والإهانات بعد هذا الحادث الفاجع .

ويصف لنا بونين عودتهما حزينتين مهيضتى الجناح إلى أمريكا فى إحدى البواخر التى تعبر المحيط ، ومعهما الجثة وقد وضعت فى تابوت ، وأنزل التابوت إلى قعر الباخرة ، وتشق الباخرة طريقها إلى الدنيا الجديدة وركابها يستمتعون ويلهون غير شاعرين بمأساة وافدسان فرانشيسكو ، وهو يروى حوادث القصة

فى أسلوب موضوعى شديد الإيجاز مما زاد فى قيمتها من الوجهة الفنية .

وقد بدأت شهرة بونين فى الأدب الروسى بقصة « القرية » وهى تصف حياة القرية فى روسيا ما قبل الثورة وما بها من قسوة ومرارة وفقر مدقع وحيوانية بغيضة ، وقد أثنى عليها جوركى وغيره من الكتاب والنقاد وأعجبهم منها جرأة بونين فى وصف الفلاح الروسى وصفاً صادقاً لم يحاول فيه إخفاء عيوبه وستر نقائصه .

وقد قدرته بلاده بعد ذلك فاختير عضو شرف فى أكاديمية العلوم الروسية ، ومنح جائزة بوشكين للأدب ، ولما حدثت الثورة الروسية لم يرتض المقام فى روسيا وهجرها إلى غير عودة ، وقضى بقية حياته فى فرنسا ، ونال جائزة نوبل للأدب فى سنة ١٩٣٣ وأدركته الوفاة سنة ١٩٥٢ بعد أن جاوز الثمانين من عمره .

وقد تأثر بونين فى أدبه بشيكوف وترجنيف ، وهو يثير عواطف قرائه عن طريق كبت عواطفه الخاصة وتحرى الموضوعية فى كتابته ، وكان يستطيع أن يكتب قصة من لا شىء على وجه التقريب ، كان تكفيه حالة نفسية عارضة أو ملاحظة عابرة أو وصف تأملات يثيرها حادث بسيط أو مشهد عادى ليخلق منها قصة قد تنقصها الحبكة المحكمة ولكنها مع ذلك تترك فى نفس القارئ أثرها ، ويطالعك من وراء كتابات بونين الباحث الحائر والرجل الذى يرى الكثير مما لا يترك مجالا للتفاؤل اليسير .

وكتابه « صور وذكريات » من الكتب التى كتبها فى أصيل حياته معتمداً فيه على مذكراته وما حوته ذاكرته من ذكريات نشأته وتاريخ أسرته ، وعلاقته بطائفة من الكتاب الروسيين البارزين ورجال الفنون الروسيين بوجه عام ، وهو يحدثنا فى هذه الذكريات عن تولستوى وشيكوف وجوركى والمغنى الروسى

الشهير شاليا بين والروائى كوبرن والمصور ربن والزعيم الفوضوى كروبتكين وغير ذلك من اخبار حياته الأدبية وتجاربه الفنية .

وقد استهل الكتاب بتقديم نفسه لقرائه وتعريفهم بأسرته ونشأته فقال «الأسرة العريقة النبيلة التى انحدرت منها قدمت لروسيا طائفة من الرجال الممتازين . لا فى خدمة الدولة والجيش فحسب وإنما كذلك فى عالم الفن ، فاثنان من الشعراء اللذين عاشوا فى أوائل القرن الماضى وبلغوا مبلغاً من الشهرة كانا ينتسبان إليها وهما أننا بونين وفاسيلى زوكوفسكى ابن أناز بونين وسلمى التركية ، وقضى جميع أسلافى حياتهم متصلين بالمزارعين قريبين من الثرى ، وكانوا من أعيان الريف . وكذلك كان والدى ، فقد كانت لها أملاك فى وسط روسيا فى إقليم البطاح الخصبة الذى أقام فيها قياصرة مسكو مستعمرات لحماية أنفسهم من غزوات التتار ، وفى تلك النواحى نشأت أغنى اللغات الروسية ، ومن هذا الإقليم نبغ معظم كتابنا العظماء ابتداء من ترجنيف وليو تولستوى .

وقد ولدت فى سنة ١٨٧٠ فى فورونيز ، وقضيت أيام طفولتى وعهد الشباب فى الأغلب بالريف فى ضياع والدى ، وفى خلال طفولتى نشأ فى نفسى ميل إلى التصوير ، وهذا الميل ظاهر فى أعمالى الأدبية ، وبدأت أقرض الشعر وأكتب النثر فى سن مبكرة ، وظهرت لى مؤلفات وأنا ما أزال يافعاً ، وقد بدأت حياتى كاتباً بداية عجيبة ، وأستطيع أن أقول إنها بدأت فى اليوم الذى رأيت فيه وأنا فى الثامنة من عمرى صورة أذهلتنى . وقد رأيت تلك الصورة فى كتاب فاستولى على دافع مباغت لا مرد له يدعونى إلى كتابة شىء يشبه الشعر او قصة من قصص الجان ، وكان فى هذه الصورة جبال متأبدة ومنحدر مياه قد وقف فى أسفله مزارع بدين مكتنز اللحم يحمل فى يده عصاً طويلة ، وكان قزماً له وجه امرأة وعنق منتفخ (أى أنه كان مصاباً بتضخم الغدة الدرقية) وعلى

رأسه قبعة صغيرة أقرب إلى قبعات النساء وقد برزت من أحد جانبيها ريشة وقد كتب تحت الصورة كلمة لم أكن أعرفها من قبل لحسن الحظ وهكذا كانت تقرأ «لقاء فدم فى الجبال» فدم ! لو لم تكن هناك هذه الكلمة الغريبة لبدا لى فى القزم المتورم العنق مجرد إنسان قبيح الصورة مشوه المنظر ، ولكن لفظة «فدم» فما هو هذا الفدم ؟ كان للكلمة فى نفسى وقع غامض رهيب كاد يكون سحراً ، وتملكتنى حينذاك نشوة شعرية ، وقد ذهبت النشوة فى ذلك اليوم هدراً لأننى لم أنظم بيتاً واحداً من الشعر برغم شدة محاولتى ، ولكن ماذا فى هذا ؟ أليس من حق هذا اليوم أن يعد من الأيام التى بدأت فيها الكتابة ؟» .

ويستطرد بونين فى التحدث عن نفسه قائلا «ولم يبطئ النقاد فى التنويه بمؤلفاتى ، وأحرزت جوائز فى مناسبات عدة منها أسمى جائزة تمنحها الأكاديمية الروسية وهى جائزة بوشكين . وفى سنة ١٩٠١ اختارتنى هذه الأكاديمية نفسها عضو شرف ضمن أعضائها الاثنى عشر الذين يعادلون الخالدين فى الأكاديمية الفرنسية وكان من هؤلاء الأعضاء ليو تولستوى .

ولكنى مع ذلك انتظرت طويلا قبل أن أظفر بشهرة خاصة ، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة ، فقد ابتعدت عن السياسة ولم أعرض فى كتاباتى لشىء متصل بها ولم أنتسب إلى أى مدرسة أدبية ، ولم أزعم أنى من الرمزيين أو الواقعيين أو الإبداعيين ، ولم أتخذ قناعاً زائفاً ولم ألوح بعلم زاهى الألوان ، وقد كان مصير الكاتب فى العهد الذى سبق الثورة متوقفاً على الاتجاه الذى يتخذه فهل حشر نفسه فى زمرة المناهضين للنظام السائد ؟ وهل خرج من صفوف الشعب ؟ وهل سجن أو نفى ؟ وهل اشترك فى المعركة الأدبية التى احتدمت فى روسيا إلى جانب نقادها العاجزين عن الحكم فى مسائل الفن والمتلهفين على تجديدات متوهمة وأحاسيس محيرة ؟ وعلاوة على ذلك فإننى لم أغش الدوائر الأدبية لأنى

كنت أقضى معظم الوقت فى الريف أو فى الأسفار فى داخل روسيا وفى الخارج وقد زرت سوريا وفلسطين ومصر والجزائر وتونس والمنطقة الحارة ، وكانت اهتماماتى موجهة إلى مشكلات فلسفية ودينية وأخلاقية وتاريخية ، وفى سنة ١٩١٠ ظهرت روايتى «القرية» وكانت الحلقة الأولى فى سلسلة من المؤلفات تصور الخلق الروسى تصويراً خالياً من الزخرف . وتصف الروح الروسية فى تعقدها المحير وظلالها المختلفة ، والتزامى الصدق فى هذه المؤلفات جعلها تثير مناقشات حادة وساقت إلىَّ على طول المدى ما يسمى بالشهرة ، وقد عززت هذا النجاح الكتب التى ألفتها بعد ذلك . وشعرت خلال تلك السنوات أن يدى تزداد كل يوم قوة ، وأخذت القوى القلقة الواثقة من نفسها التى كانت تتجمع وتنضج فى داخل نفسى تطالب بالتعبير عنها ، ونشبت الحرب الكبرى الأولى فى تلك الفترة وأعقبتها الثورة ، ولم أكن من الذين أخذتهم هذه الأحداث على غرة ورغم اتساع مداها وفظاعتها ، ولكن الواقع مع ذلك جاوز كل ماكان منتظراً ، ولا يستطيع من لم ير بعينيه أن يفهم ما انحدرت إليه الثورة الروسية ، ولذلك فر من روسيا كل من استطاع أن يجد إلى الفرار سبيلا ، وكان من بين المهاجرين أشهر كتاب روسيا ، وقد غادرت موسكو فى مايو سنة ١٩١٨ إلى جنوب روسيا وكان قد استولى عليه البيض ثم الحمر ، وأخيراً رحلت إلى الخارج فى فبراير سنة ١٩٢٠ ، وقد شربت كأس الشقاء الذى يتجاوز الوصف والأمل الخائب حتى الثمالة» .

وبعد فهذه خلاصة ماكتبه بونين فى مستهل ذكرياته للتعريف بأسرته والإشارة إلى ماضيه . وقد بدأ ذكرياته بالحديث عن ذلك العبقرى المنقطع النظير ليوتولستوى فقال «بدأ إعجابى به وأنا لا أكاد أتجاوز مرحلة الطفولة ، وكونت عنه فكرة خاصة وأنا غلام ناشئ ، ولم يكن ذلك بعد قراءة كتبه ،

وإنما من المحادثات ، وإنى أذكر فيما أذكر والدى وهو يحدثنا ضاحكا عن بعض جيراننا الذين كانوا يقرأون روايته الحرب والسلام . ففريق منهم كان يقرؤها على أنها رواية الحرب ، وفريق آخر كان يقرؤها على أنها رواية السلام . وكان الفريق الأول يغفل فيها قراءة ما ورد عن السلم والفريق الآخر يغفل قراءة كل ما ورد فيها عن الحرب . وكان والدى يقول «إنى أعرفه بعض المعرفة فقد تلاقينا مرات عدة فى أثناء حرب القرم» وأذكر أنى نظرت إلى والدى وهو يقول ذلك نظرة خوف ودهشة فقد رأى تولستوى رأى العين ! .

ولكن لماذا كان يخالجنى نحوه هذا الشعور وأنا لم أقرأ سطراً واحداً من كتبه ؟ ولكن كونه من الكتاب كان يكفى لذلك ، فقد كان الكاتب يبدو لى نوعاً خاصًّا من الناس ، وكان يثير فى نفسى شعوراً عجيباً لا يمكن التعبير عنه ، ولا أستطيع تحديده حتى اليوم ، كما أنى لا أستطيع أن أفسر كيف ومتى ولماذا أصبحت أنا نفسى كاتباً . وإنى أجد أن مثل هذه المسائل لا يمكن الإجابة عنها ، كما أنه من غير الممكن الإجابة عن سؤال متى وكيف أصبحت الرجل الذى أكونه ؟ ولما وضح لى بعد ذلك أننى سأكون من الكتاب أصبحت الحياة فى الكتب وفى عالم الشعراء والكتاب حياة ثانية لى ، ولكننى مع ذلك لا أذكر متى بدأت قراءة تولستوى ، وكيف صرت أضعه فى مكانة مختلفة عن مكانة غيره من الكتاب وقد يحدث أن يكتشف الإنسان فجأة شيئاً جميلا وثميناً ، ولكن هذا لم يحدث لى مع تولستوى ، فلست أذكر لحظة مثل هذه الدهشة ، والأشياء الجميلة التى صادفتها فى طفولتى وشبابى بوجه عام لم تدهشنى ، فقد كنت دائماً أشعر بأننى عرفتها منذ زمن طويل ، ولم يبق لى إلا أن أسر لأنى لقيتها ، وقد ظللت سنوات كثيرة مولعا بتولستوى ، محبا للصورة التى خلقها خيالى . وتاقت نفسى إلى رؤية شخصه ، ولم يزايلنى هذا التوق . ولكن ماذا

أستطيع أن أصنع ؟ أأذهب إلى ياسنايا بوليانا ؟ ولكن ما العذر الذى أنتحله ؟ وماذا أقول حينما أمثل فى حضرته ؟ وفى يوم أضحيان من أيام الصيف وجدتنى لا أستطيع الصبر ولا أن أحتمل أكثر مما احتملت فبادرت إلى إسراج جوادى الشركسى ، وقصدت إفريموف فى إتجاه ياسنايا بوليانا ، ولم نكن على بعد أكثر من ثمانين ميلا ، ولكن بعد أن طويت الطريق إلى إفريموف أحجمت وترددت وصممت على أن أقضى الليل هناك وأقلب الأمر على جوانبه ، وكنت مهتاج الخاطر فلم يغمض لى جفن طوال الليل ، ولم أستطع أن أنتهى إلى رأى ، فهل أذهب أولا أذهب ؟ وقضيت ساعات أجوس خلال المدينة حتى أدركنى الإعياء ، فلما وجدتنى أخيراً فى حديقة المدينة العامة جلست على أول مقعد صادفنى ، واستغرقت فى النوم . ولما أفقت من النوم أعدت التفكير فى الأمر ، وعدت أدراجى إلى المنزل ، وهناك قال لى أحد العمال «ناشدك الله ماذا صنعت بالجواد الشركسى فى ليله واحدة وماذا كنت فى مطاردته ؟» وتطلبت لقاء تولستوى بعد ذلك سنوات كثيرة ، ولكنى لم أظفر به ، وكنت فى تلك الأيام أحلم بالحياة النقية السليمة الشفقة القريبة من الطبيعة والتى أحصل فيها على خبزى اليومى بالمجهود اليدوى الشاق ، وأكون فيها على علاقات أخوية ليس مع الفقراء والمضطهدين فحسب بل مع جميع عالم النبات والحيوان . وهذا كله وفى مقدمته فرط إعجابى بتولستوى الفنان جعلنى من أتباع مذهب تولستوى ، ولم يفارقنى الأمل الخفى بأن فى ذلك ما يسوغ لقائى لتولستوى ، وربما أصبح من حوارييه ، وكنت حينذاك مقيما فى بولتافا ، وكان بها جماعة من أنصار تولستوى ، وسرعان ما تعارفنا ، وكانوا ثقلاء مملين ، ولكنى صبرت عليهم واحتملتهم فى شجاعة» .

ويصف لنا بونين نادرة على لسان أحد أتباع تولستوى هؤلاء واسمه

كلوبسكى فيقول «كنت مسافراً إلى خاركوف فجاء رجل يسمونه لسبب من الأسباب مفتش القطار ، وخاطبنى قائلا «التذكرة من فضلك» فسألته قائلا «ماذا تعنى بقولك التذكرة ؟» .

فأجابنى «التذكرة التى تسافر بها» فقلت له «إننى مسافر بالقطار لا بالتذكرة» .

فأجابنى «أتريد أن تقول إنك لا تحمل تذكرة ؟» فقلت هذا بالضبط ما أردت أن أقوله» .

«إذاً عليك أن تغادر القطار فى المحطة التالية» .

فقلت له «هذا أمر يهمك ، أما ما يهمنى فهو أن أتم رحلتى» .

وفى اللحظة التالية ظهروا ، وطلبوا إلى أن أغادر القطار ، فقلت لهم «لماذا أغادر القطار ؟ إنى سعيد بوجودى فيه» .

«حسن سنرغمك على مغادرته» .

«وماذا يحدث إذا امتنعت عن الحركة ؟» .

«سنسحبك منه ونحملك حملا» .

«وهكذا بدأوا يحملوننى إلى خارج القطار غير مبالين بالدهشة التى استولت على جماعة المواطنين المحترمين» .

وقد صور لنا بونين فى هذه النادرة كيف كان يفهم مبادئ تولستوى أفراد هذه الجماعة التى كانت تنتسب إليه ، وتدعى العمل بتعاليمه والتى شاءت الأقدار أن يجتمع بأفرادها .

وكان بونين يحتملهم ويصابرهم آملا أنهم يمهدون له السبيل إلى لقاء تولستوى والدنو منه ، والاستمتاع إلى حديثه . وقد تحقق أمله ، لأن الجماعة

قبلته عضواً بين أعضائها ودعته إلى زيارة تولستوى مع سائر الأعضاء بمدينة مسكو .

ويصف لنا بونين متاعب هذه الرحلة وغرابة أطوار هؤلاء الأتباع الشواذ ، ولكنه على ما يظهر كان مستعدًّا لاحتمال الأهوال من كل لون فى سبيل لقاء تولستوى معبوده فى تلك الفترة من حياته ، وقد استطاع فى الأيام التى قضاها معهم أن يتعرف طرائق تفكيرهم وأنماط نفوسهم ، فقد كانوا أنواعاً مختلفة من هذا «الفدم» الذى رآه فى الصورة التى كانت أول موقظ لملكاته الأدبية ومواهبه الفنية .

وتحدد اليوم الأول من يناير للقاء تولستوى ، واستيقظ بونين من النوم فى صباح ذلك اليوم فرحاً لقرب تحقيق أمنيته ، وابتعثه ما كان يشعر به من السرور على أن يبدأ أحد أفراد الجماعة — واسمه الكسندر روفتش — بقوله «سنة سعيدة» ولكن هذه الكلمة أثارت صاحبنا الكسندروفيش فصاح به غاضباً «سنة سعيدة ! ماذا تريد بهذا السخف المبتذل» وكظم بونين غيظه ، والتزم الصمت قائلا لنفسه «كل هذا يهون فى سبيل لقاء تولستوى» وأخيراً حانت اللحظة ، وحدد له وقت لزيارة تولستوى ، وانطلق إلى دار تولستوى ، وسأله الخادم عن اسمه فأجابه «بونين» وجلس فى إحدى الحجرات ينتظر قدومه ، وأخيرا أقبل تولستوى لرؤية ضيفه الذى أضناه الإعجاب به وبدأ الحديث معه بقوله :

«بونين ؟ هل كان والدك الذى عرفته فى القرم ؟ وهل قضيت مدة طويلة فى مسكو ؟ ولماذا قدمت لترانى ؟ وهل أنت كاتب ناشئ ؟ حسن بالتأكيد ، استمر فى الكتابة مادمت تشعر بأنك تميل إليها ، ولكن تذكر أنها لا يمكن أن تكون الغاية من الحياة . من فضلك اجلس وحدثنى عن نفسك :

ويقول بونين «إنه كان يتحدث مسرعا متظاهراً بأنه لم يلحظ ما أصابنى من

اضطراب ، باذلا جهده فى تهدئة خواطرى ، وإدخال الطمأنينة على نفسى ، وظل يوجه إلى الأسئلة ، أأعزب أنت أم متزوج ؟ تريد أن تعيش فى بساطة وتعمل فى الأرض ، هذا حسن ، ولكن لا ترغم نفسك على ذلك ، ولا تتخذه قاعدة مطردة ، إن الإنسان يستطيع أن يكون رجلا صالحاً فى أى نوع من أنواع الحياة . . . » .

ولم يطل اللقاء فى هذه المرة ، فقد أقبلت سيدة تدعوه للقاء ضيف آخر كان ينتظره ، فقام معتذراً ، ونظر إلى وجه بونين بعينه الصغيرتين اللتين كانتا تنمان دائماً على الحزن الأسود الدفين ، وقال « احضر لترانى مرة ثانية حينما تكون فى مسكو ، لا تنتظر كثيراً من الحياة ، إنك لن تلقى أياماً أحسن من الأيام التى تلقاها الآن ، فليس فى الحياة سعادة ، وإنما لها بوارق من الحين إلى الحين ، وعليك أن تقدر هذه البوارق وتعيش عليها » .

وانصرف بونين وقد امتلأت نفسه سروراً ، وقضى ليله وهو يشاهد صور تولستوى فى أحلامه واضحة جلية . واستيقظ من نومه وهو لا يكف عن الحديث عنه والتفكير فيه ، وبعث إليه بطائفة من الرسائل ، وتلقى منه ردوداً عاطفية مشجعة أشار فى بعضها إلى أنه لا يرى له أن يتشدد فى أن يأخذ نفسه بتعاليمه ، ولكن هذه النصيحة لم تجعل بونين يخفف من غلواء تحمسه لتولستوى وآرائه حتى لقد اعتقل مرة وحكم عليه بالحبس لأنه أعان على ترويج بعض كتب تولستوى دون أن يحصل على إذن خاص ببيع هذه الكتب ، ولم ينقذه سوى صدور مرسوم من القيصر ، وكان من حظه بعد ذلك أن حظى بلقاء تولستوى عدة مرات مع الإخوان من أتباع تولستوى ، ويقول بونين عن إحدى هذه الاجتماعات « أردت مرة أن أحوز القبول عند تولستوى فقلت له « إن جمعيات منع المسكرات تتكاثر فى كل مكان » فقطب ما بين عينيه قليلا وقال

«أى جمعيات ؟» «جمعية منع المسكرات».

«تقصد بذلك أن الناس يجتمعون لكيلا يشربوا الفودكا ؟ أى سخف ! لا حاجة إلى الاجتماع للإمساك عن الشراب ، وإذا كان لا بد من الاجتماع فخير لهم أن يشربوا ، وأى سخف هذا وأى نفاق ، إنهم يحلون محل العمل التظاهر بالعمل».

ودخل بونين فى ذات يوم عليه وهو يقرأ فى كتاب ، فلما رأى بونين ألقى بالكتاب فى أحد أركان المنضدة ، ولمح بونين بعينيه الحادتين عنوان الكتاب فإذا به كتاب «السيد والعامل» الحديث الظهور ، وبعثه الإعجاب بالكتاب على الثناء عليه . فظهر الخجل على وجه تولستوى ، وأشار بيديه نحو بونين قائلا «ارجوك ألا تذكر هذا الكتاب ، إنه فظيع ، إنه عادى المستوى إلى حد أنى خجل من الظهور فى الشارع».

وكان تولستوى فى تلك الأيام قد آلمه ألماً شديداً فقد ولده فانيا فى السابعة من عمره ، وانتقل بعد الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن نجله فقال «إنه كان فاتناً ساحراً وغلاما مباركا ، ولكن لماذا أقول إنه مات ؟ إنه ليس بميت ، إنه يعيش فى نفوسنا لأننا نحبه» وظل يردد قوله «ليس هناك موت ، ليس هناك موت ! ».

ومر على هذا اللقاء عشرة أعوام ، ولقيه بونين بعد ذلك للمرة الأخيرة فى الطريق ، فتوقف تولستوى عن السير ، وعرفه فى التو واللحظة . وقال له «كيف حالك ؟ وأين تعيش ؟ وماذا تعمل ؟» .

وبعد كلمات قليلة هزيد بونين فى رعاية وعطف ونظر فى حزن إلى عينيه وقال له «حسن ليكن معك المسيح ، ليكن معك المسيح ، أستودعك الله ! » .

ويذكر بونين فى أحد فصول كتابه وذكرياته عن الكاتب الروائى شيكوف ،

ويقف عنده وقفة طويلة فقد كان شيكوف من أصدقائه وأساتذته ، وقد عرفه بونين معرفة صحيحة ، واتصل به اتصالا وثيقاً ، وقد استهل الكلام عنه بقوله «لقيته لأول مرة آخر سنة ١٨٩٥ فى مسكو ، وقد ظلت بعض تعبيراته الخاصة لاصقة بذاكرتى حتى اليوم ، سألنى قائلا «هل تكتب كثيراً» .

فأجبته بالنفى فقال مكتئبا فى صوت خفيض «يا للعار» اعلم أن عليك أن تعمل ، عليك أن تعمل بدون توقف طوال حياتك» وتريث لحظة ثم أضاف قائلا بدون أن يكون هناك ارتباط بين الكلام «أظن أن على الإنسان حينما ينتهى من كتابة قصة قصيرة أن يحذف منها المطلع والمقطع ، وأغلب ما يعرض لنا من الخطأ نحن كتاب الرواية يأتى من هاتين الناحيتين ، وعلى كاتب القصة أن يتحرى الإيجاز ما وسعه ذلك» .

وبعد هذا اللقاء فى مسكو لم أره إلا فى ربيع سنة ١٨٩٩ ، فقد ذهبت إلى مدينة يالتا لقضاء بضعة أيام ، ولقيته هناك ذات مساء على رصيف الميناء ، وقال لى «لماذا لا تأتى لزيارتى ؟ إنى منتظرك غداً» .

«فى أى وقت ؟» .

«تعال فى الصباح حوالى الساعة السابعة» .

ولحظ ما انتابنى من الدهشة فقال «إننا نستيقظ مبكرين ، فهل أنت كذلك ؟» .

«نعم أنى أستيقظ مبكراً» .

«حسن ، هذا مناسب ، احضر متى استوفيت استعدادك ، وعلينا أن نحتسى القهوة فى الصباح لا الشاى ، إنها مدهشة ، وحينما أعكف على العمل لا أتناول حتى المساء سوى القهوة والمرق» .

ومشينا والرصيف صامتين ، وجلسنا على مقعد فى الميدان وسألته «أتحب البحر؟» .

فأجاب «نعم ، ولكنه خال من الناس» .

فقلت «هذا أحسن ما فيه» .

فقال وقد أرسل رائد طرفه بعيداً وبدا مستغرقاً فى أفكاره «أظن أنه حسن أن يكون الإنسان ضابطاً أو أن يكون طالباً شابًا ، وأن يجلس فى مكان مزدحم ويستمع إلى موسيقى سارة» .

وصمت هنيهة وأضاف بطريقته الخاصة دون أن يكون هناك تسلسل فى الحديث «من الصعب أن نصف البحر ، أتعرف الوصف الذى قرأته قريباً فى كراسة أحد تلامذة المدارس «كان البحر كبيراً» وهذا كل ما قاله ، لقد وجدته مدهشاً» .

ويقول بونين إن شيكوف ظل متحفظاً معه برغم توالى الزيارات وتوثيق العلاقات بينهما ، وقد لحظ بونين أنه يلتزم هذا التحفظ حتى مع أقرب الناس إليه ، ولم يكن هذا التحفظ لوناً من ألوان الفتور وإنما كان مجرد سيطرة على النفس وامتلاك لزمامها ، وكانت هذه السيطرة على النفس ظاهر فى أعماله وأقواله فلم يسمعه أحد من الناس شاكياً متبرماً بالرغم من توفر الأسباب التى كانت تدعو إلى الشكوى والتبرم ، فقد عانى الفقر حيناً طويلا ولكنه لم يلف شاكياً ، واحتمل المرض المنهك سنوات عدة ولم يقل لأحد شيئاً ، وحينما كان يقضى يومه جالساً على كرسيه وقد أغمض عينيه كانت والدته تسأله «أتشعر بشىء من التعب ؟» فيجيبها قائلا «كلا إنى على ما يرام» .

ويقول لنا بونين إنه كان معجباً بموباسان وتولستوى ، وكان يكثر من الكلام عنهما وعن رواية تامان للكاتب لرمنتوف .

ويقول بونين «يقال عن كل كاتب بعد موته إنه كان يسر بتوفيق الآخرين ، وإنه كان خلواً من الغرور ، ولكننا نصدق حينما نقول ذلك عن شيكوف ،

فقد كان يسر حينما يرى أى دليل على وجود الموهبة ، وكان لا يسعه سوى السرور وكانت أقسى كلمة يقولها هى إنه غير موهوب » .

وماذا كان موقفه من مشكلة الموت وخلود النفس ؟ يقول بونين إنه كان فى كثير من الأحيان ينكر الحياة بعد الموت ويؤكد هذا الإنكار ويقول إنها خرافة ، وإنه يستطيع إثبات أن خلود النفس سخافة وهراء ، ولكن العجيب – كما يروى لنا بونين – أنه كان يعود فيناقض نفسه قائلا « من غير الممكن أن نختفى دون أن نترك أثرا . وبطبيعة الحال سنحيا بعد الموت ، وخلود النفس حقيقة ، إنتظر فإنى سأقيم لك الدليل على صحتها » .

ويتحدث عن المغنى الروسى الشهير شليا بين فيقول إن شيكوف كان يردد أن الشهرة مثل ماء البحر كلما شرب منها الإنسان ازداد ظمؤه ، وقد شرب شاليابين من هذا الماء كثيراً ، وظل إلى النهاية ظمآن .

واستهل ذكرياته عن مكسيم جوركى بقوله « بدأت الصداقة العجيبة بينى وبين جوركى سنة ١٨٩٩ ، وإنى أقول الصداقة العجيبة لأننا ظللنا نعد صديقين حميمين مدة عشرين سنة على حين أننا لم نكن كذلك ، وقد انتهت صداقتنا سنة ١٩١٧ ، فالرجل الذى ظل مدة عشرين سنة لا تبدر منه أى بادرة تستوجب الخصومة الشخصية انقلب فجأة عدوًّا أثار فى نفسى الفزع والغضب ، وقد ذهبت تلك المشاعر بمضى الأيام . وأشعر الآن كأنه لم يكن موجوداً بالقياس إلى » .

وواضح أن الاتجاهات السياسية فرقت بين الصديقين القديمين والكاتبين القديرين ، ولم يكن من ذلك بد على ما يظهر بعد نشوب الثورة ، فقد كان بونين أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية التى قامت الثورة للقضاء عليها ، وكان جوركى رجلا من غمار الشعب يمثل الطبقة الكادحة التى ناصرت الثورة ،

ولقد قال أبو تمام يخاطب صديقه على ابن الجهم :

إلا يكن نسب هناك فبيننا أدب أقمناه مقام الوالد

ولكن الأدب فى حالة هذين الأديبين – بونين وجوركى – لم يستطع أن يطوى الخلاف الطبقى ، ويقضى على الفرقة المذهبية .

وتحدث بونين فى ذكرياته عن الروائى المعروف كوبرن وعن الروائى الشاعر الكس تولستوى الذى كان يلقب «تولستوى الثالث» ، ويذكر لنا كيف أغراه فى لقائهما الأخير بالعودة إلى روسيا قائلا له «إنهم سيحيونك فى مسكو بدق أجراس الكنائس» ، وإنهم يحبونه كثيراً ويقرءون كتبه ، ويتحدث عن الأمير كروبتكين الزعيم الفوضوى ودعوته إلى روسيا ولقائه لينين ، ومحاولته توجيه الثورة وجهة إنسانية ، ويأسه بعد ذلك من هذه المحاولة ويختتم الكتاب بوصفه لرحلته إلى استوكهلم لتسلم جائزة نوبل التى ظفر بها سنة ١٩٣٣ وتمتاز صورة وذكرياته بالبساطة واليسر ومجافاة التعالم والحذلقة ، ويتنقل الإنسان منها بين الملاحظة الدقيقة والفكرة الكاشفة والتصوير الصادق والأمانة فى التعبير عن الأفكار والأحاسيس .